

إبراهيم (ع) يتلطّف في دعوة أبيه/ ج(2)



كان آزرٌ يعبد الأصنام، بل كان ممّن ينجسها ويبيعها؛ وهو أقربُ الناس إليه وألصقُهم به، وأولاهم بالهداية، وأجدرُهم بإخلاص النصيحة؛ فمن البرّ به أن يهديه سواء السبيل، ثمّ هو أيضاً من المسوّين خلقها والناحتين لها، والداعين إلى عبادتها، إنّّه لذلك داعيةٌ إثم، ومبعثُ فتنة، فهدايته قُربى إلى الله، واستئصالُ لبذور الشر، واجتثاثُ لجذور الضلال.

لم يبدأ الدعوة مع أبيه بتسفيه معبوداته، أو تحقير آلهته، لئلا ينفر منه، أو يُصرِمَ آذانه عنه أو يرميه بالعقوق والجحود، بل رتّبَ الكلام معه على أحسن اتساق، وخاطبه بالقول اللين، والأدب الجميل، وابتدأ حديثه معه بذكر بنوّته، ليستثير عطفه ويمسّ شغاف قلبه، ثمّ سأله عمّا يدعوه إلى ركونه إلى الأصنام، وعكوفه على عبادتها، مع أنّها لا تسمع دعاءه وثنائه، ولا تبصر خضوعه وخشوعه، ولا تُستدفعُ في بلاء فتدفعه، أو تُستمنحُ شيئاً فتمنحه.

وخاف أن ينصرف عنه استصغاراً لشأنه، وامتهاناً لرأيه، فقال: يا أبت، إنّّه قد جاءني من العلم ما ليس لك، وأوتيتُ حظاً من المعرفة لم تُؤتَ، فلا تستنكف أن تتابعني، ولا تتخلّف عن مسيرتي، وإن كنتُ لا أبلغ شأوك، أو اشارك سنّك. ثمّ توسّل إليه أن يتبع خطواته، ويسير على هديه، فذلك هو الصراط المستقيم، والطريق القويم.

ثمَّ أراد أن يُزَهِّدَ في أوثانه، ويَنأى به عن عبادة أصنامِه، فأبان له أنَّه بالعكوف عليها، والإنقياد لها يعبدُ الشيطان، ويلتجئ إلى ساحته، وهو الذي عصى الرحمن، وتوَعَّدَ الناس بالإغواء، فهو عدوٌّ لا يُرشد إلى خير، ولا يبغي إلا الهلاك والشر. ثمَّ خوَّفه سوء العاقبة وشرَّ المصير، ولكنه لم يصرح بأنَّ العذاب لاحقَه، والعقاب مُحَيِّق به، برَّاءً به، وتأدُّباً معه، واستعطافاً له.

فلمَّا عرض هذا الرشد عليه، وأهدى هذه النصيحة إليه أبى آزرُ متابعة رأيِه، وأصرَّ على بُدُوِّته، وأنكرَ حَـدَـبَه عليه وشفقته به، ونجهَّم له، وقال محتقراً شأنه، مُتَعَجِّباً من جرأته، منكراً عليه نصيحته: أراغِبُ أنت عن آلهتي يا إبراهيم! لئن لم تَنْتَهِ عن زيغِكَ، وترجع عن غيِّكَ، وتَنذُب إلى رشدِكَ لأرجمَنَّكَ بالحجارة، ولأرميَنَّكَ بهُجْر القول، فاحذر سَـوَرَةَ غَضبي، وتجنَّب إثارة سخطي، واهجرني مليّاً، فليس لك في داري مكان، ولن تجد في قلبي إثارة من عطف، أو بقية من إحسان.

قابل إبراهيم تهديد آزر بمدرِّ رحب، وتلقَّى وعيدَه بنفس مطمئنة، ثمَّ أجابه بما يُنبئ عن برِّه به، وإخلاصه النصح له، وقال: (سلام عليكم سأستغفر لك ربِّي إنَّه كان بي حفياءً. وأعتزلكم وما تدعون من دوني) وأدعو ربِّي عسى ألاَّ أكون بدعاء ربِّي شقياءً) (مريم/47-48).

وودَّعه وانصرف، وهو كاسف البال، محزون الفؤاد، لأنَّ دعوته لم تجد آذاناً مُصغيةً عند أبيه، واعتزله لئلا يكون مُطاهِراً له على الكفر، ومشاعياً في الشِّرك.

يتبع...

المصدر: كتاب قصص القرآن